العرب
الأربعاء 2020/05/20
السنة 42 العدد 11708

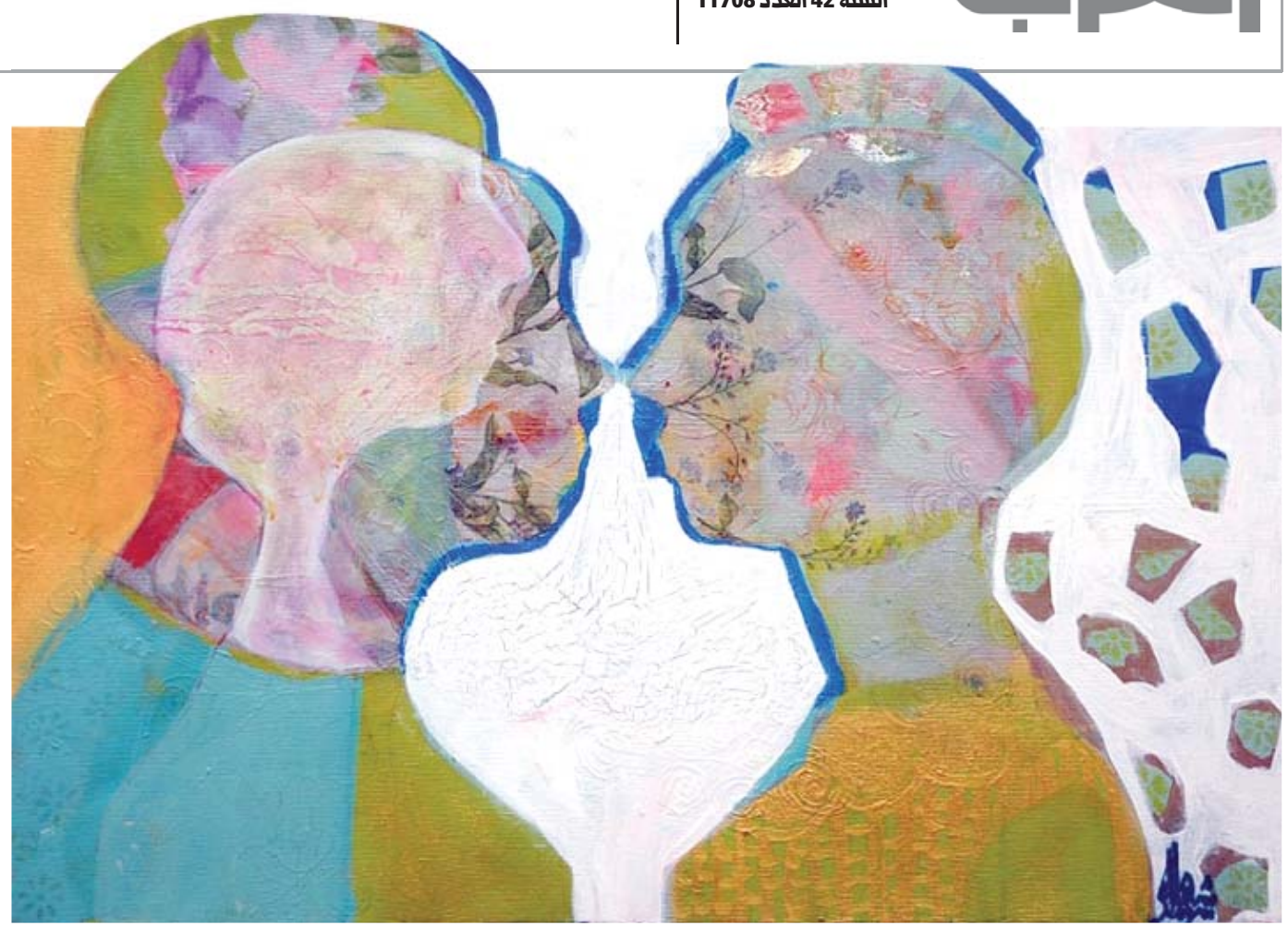

الملل لا يصنع الأمل (لوحة للفنانة التونسية شهلة سومر)

الجدران المغلقة لا تصنع مبدعا متألقا بل كائنا متجهما

ماذا تفعل في حجرك الصحي أيها الفنان.. سؤال يتجاهل قيمة الحريات

هل صحيح أنّ الكثير من الإبداعات الفنية تصنعه الرغبة في "قتل الوقت" التي يتسبّب فيها ذاك الإحساس الموحش الرهيب بالعجز والفراغ والملل؟ تساؤل زاد من مشروعية طرحه، تلك الاستبيانات والتحقيقات الصحافية التي تتوجه للكتاب والفنانين بسؤال موحد: ماذا تقرأ أو تسمع أو تكتب أو ترسم أو تشاهد، فترة حجرك الصحي؟

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

يبدو راسخا في أذهان بعض أصحاب الإعلام الفضولي، أنّ الحجر الصحي هو الظرف الأنسب للنشاط الإبداعي، والتثقيف الفكري، بوصفه حالة ملء للفراغ، ومقاومة للسأم التي تنتجها أيام العزلة.

هؤلاء على قناعة تامة، مفادها أن الملل هو "أفضل شياطين الإلهام"، فما أن يستفرد هذا الأخير بصاحبه، حتى يكون الإنتاج الإبداعي "ثالث الاثنين"، فكأنما فايروس كورونا قد أوجد "وادي عبقر" من نوع خاص، وفق ما تحدّث عنه ابن الشهيد الأندلسي في "رسالة التوابع والزوابع".

حبس كوروني

يُخيّل لمستنطقي الفنانين في حجرهم أنهم سيظفرون بصيد إبداعي هائل، فور انسحاب الوباء من مدننا وأسواقنا لتحلّ محلّه حياة ثقافية سليمة ومتميزة، باعتبار أن المحبوسين في ديارهم قد استمتعوا بالوقت الكافي للتأمل والصفاء، ومن ثم يطلون على جمهورهم بكل ما هو جديد وخارق.

الحقيقة أن هذا الحجر الصحي المقيت، يشبه الإقامة الجبرية التي عادة ما تلزم بها المحاكم عتاة المعارضين من السياسيين في العالم الثالث بل يزيد عليها قهرا وحسرة، ذلك أن المرء يشعر بنفسه داخل سجن مفتوح الباب، لطيف السجان، وبرفقة أطفال ملولين وشريك زوجية يمزّقه الضيق مثله فيتحوّل إلى كائن نكدي لا يطاق.

الحبس الجنائي يمنحك إحساسا بالأمل الذي تستدرجه وتنمّيه بقراءات عشوائية وكتابات وجدانية، وكذلك تعلم مهارات يدوية، وربط صداقات إنسانية جديدة، توطّدها قناعتك أن مدة العقوبة ستنتهي يوما، وسوف يأتي يوم تقلب فيه صفحة جديدة من دفتر حياتك.

أما "الحبس الكوروني" فقد يعلمك الطبخ والشطف والغسل، لكن الفعل الإبداعي يصبح بلا روح ولا مزاج، وأشبه بتلك العقوبة المدرسية التي كانت تلزمنا صغارا بنسخ الدرس عدة مرات أو تلخيص كتاب لا نرغب في قراءته.. هذا، بالإضافة إلى أننا لا نعلم متى يُطلق سراحنا.

الحجر الصحي يحرم الرسام من الاشتياق إلى لوحته التشكيلية، والعازف إلى آلته الموسيقية، والكاتب إلى جلساته وجولاته وشخصياته الدرامية.. كما أنه يُغذّي لديك الإحساس بأنك تدفع ثمن غلطة لم ترتكبها فيولّد نوعا من الشعور بمظلومية تأخذ بعدا عبثيا.

متى يعلم الفضوليون والمتطفلون على الكتاب والفنانين في حجرهم أثناء هذه المحنة الوبائية، أن لا وجود لـ"إبداع إلزامي" وأن الفراغ لا يفضي إلاّ إلى الفراغ. حياة "مونوتونية" تسير على إيقاع ثقيل ولا تتجدّد فيها غير الأنفاس داخل جدران البيت.. البيت الذي لو كان مصدر إلهام لما اخترعت المقاهي والمطاعم والحانات، وحتى الفنادق وصالات العرض، ولما طربنا لصرخات الباعة وأحببنا الأرصفة وأهلها وعشاقها.

قديما لزم أبوالعلاء المعري بيته قصدا، وأجبر رهين المحبسين، نفسه في موقف يجنح نحو الزهد، وازدراء الحياة كما فعل فلاسفة البراهمة والكهان والمتعبّدون، وكذلك فعل كافكا وشوبنهاور، وباخ، لكن هؤلاء خضعوا لحجر طوعي لا قسري، فجاءت أعمالهم تشبههم ودون تكلّف.

أما من كتبوا في المنافي والسجون فكانوا متسلحين بالإصرار على إيصال الرسالة التي ناضلوا من أجلها، فأي رسالة يدفعنا كورونا إلى إيصالها غير الخوف من الموت.. مجرّد الخوف من الموت؟

تسلية أم تعزية

لا شك أن الحياة رسالة نبيلة، لكن "صناديق البريد" مختلفة، متنوعة ومتعدّدة الوجهات والغايات والنوايا.. إنها رسالة تُكتب بطريقة غريزية، لا أكثر ولا أقل. أما الذين يسعون للإفادة والاستفادة في حجرهم، فهم جماعة يستثمرون في الوقت الذي لا يريدون سفحه في عد الأحجار ومراقبة الغيوم.

ولعل ألمع مثال على ذلك في تاريخ الأدب العربي، هو ما فعله الشاعر أبوتمام، في "ديوان الحماسة"، إذ جمع بين دفتي هذا الكتاب الذي ألّفه حين انقطعت به سبل العودة إلى البيت، من أشعار العرب ما يقرب من أربعةِ آلاف بيت، اختارها لعشراتٍ من الشعراءِ في أغراض مختلفة تجمعُ بين التسلية والطرافة، وبوّبها إلى عشرة أبواب في دقة وتأن.

> الحجر الصحي يحرم الرسام من الاشتياق إلى لوحته التشكيلية، والعازف إلى آلته الموسيقية، والكاتب إلى شخصياته الدرامية

التاريخ يروي أن أبا تمام، وفي طريقه بهمَذان، هَطلَ ثلجٌ غزير، فنزل عند صديق له ميسور الحال، ومَكَنَهُ الأخير مـنْ خزانة كتبه الغنيةً العامرة، فأخذ أبوتمام يقرأ ويُصنِّف، طيلة الأيام التي كان ينتظر فيها ذوبان الثلج.

الجدير بالاهتمام هو أن أبا تمام، لم يكتب في حجره القسري هذا، إبداعا شعريا خالصا بل بذل جهدا أرشيفيا فرضه استغلال الوقت والهروب من الملل، ثم أنه لم يكن خائفا متوجسا من مرض ما، بالإضافة - وهذا الأهم من ذلك كله - أنه كان في بيت مترف الثراء، وليس مع زوجته التي ربما كانت ستنكّد عليه عيشه بطلباتها وتذمّرها وخصوماتها.

متى نعلم أن الملل لا يصنع الأمل الذي منه يزهر الإبداع بل قد يُحبط العزائم ويُضعف الهمم، ذلك أن الإنتاج الفني يحتاج إلى حرية التنقل بين الأمكنة (وليس التنقل بين المطبخ والصالون)، بالإضافة إلى التعرّف إلى الناس الآخرين (وليس الاكتفاء بشريك الزوجية).

فرانتس كافكا خضع لحجر طوعي لا قسري، فجاءت أعماله تشبهه ودون تكلّف

وسائل الاتصال الحديثة وما تزخر به من كتابات وتعليقات وعروض شبه فنية، ليست بديلا ولا حلا لمواجهة ما يفرضه هذا الفايروس الظالم وهو يحاصرنا، وإنما هي شكل من أشكال التسلية التي تأخذ شكل التعزية.. وأغلب الظن أن غالبية من الناس سوف تهجر السوشيال ميديا، لفترة طويلة، وتضعف علاقتهم بها بعد انقضاء الحصار.

حصار الاحتلال الإسرائيلي للمخيمات الفلسطينية أثمر فنا وإبداعا وتشبثا بالحقوق الوطنية، لكن حصار كورونا صنع نفسيات متجهمة، ونظرات نزقة تختفي تحت الأقنعة والكمامات، لكنه حتما، سوف يُفرز بعد زواله، ابتهاجا واحتفاء بالحياة على المدى المتوسط والبعيد، وذلك أسوة بما حدث بين الحربين الأولى والثانية.

نعم، سوف "تُعربد" البشرية مثل بحّارة عادوا إلى اليابسة وقد نجوا من الغرق بعد عاصفة.

العين تهدأ في لوحة عبد القادري لترى العالم من سجنها

عبد القادري، لمن لا يعرفه، هو فنان تشكيلي لبناني مُرهف يتميز فنّه بالتداخل الدائم ما بين التاريخ، لاسيما العربي منه، والحاضر ليخلق خللا شاعريا عميقا في مفهوم تتالي الأزمنة التاريخية بمعزل عن تأثيراتها وتأثّراتها بحوادث وأحوال حضرت في زمن دون آخر.

ميموزا العراوي
ناقدة لبنانية

بيروت – من أهم أعمال الفنان التشكيلي اللبناني عبد القادري حتى اليوم هي تلك التي قدّمها في صالة مارك هاشم بعنوان "المقامة الموصلية" كتحية للرسام يحيى الواسطي، الفنان الذي جسّد فترة العصر العباسي، أهم الفترات التاريخية تحرّرا في الحضارة العربية. معرض أدان فيه أيضا الدمار الذي تعرّضت له الآثار والمواقع التاريخية في مناطق عربية، وتحديدا مدينة الموصل التي هدّم جزء كبير من إرثها العظيم على يد "داعش".

آخر مرة التقيت به كان خلال الثورة اللبنانية في إحدى المظاهرات بعد أن تغيّب عنها بسبب تعرضّه للضرب في إحدى مشاركاته في الاحتجاجات الشعبية. ليلة التقيت به في الساحة التي كانت ترتجّ بالمشاركين كان واقفا بهدوء ويداه في جيبي سترته وعلى رأسه قبعة سوداء. عندما التقت عيناي بعينيه ابتسم مُتعرّفا عليّ. سارعت بتهنئته بالسلامة لأرى حزنا لم أره من قبل في عينيه.

اليوم نشر الفنان على صفحته الفيسبوكية مقطع فيديو قصير يظهر فيه مُنهمكا بالرسم تحت عنوان "تفصيل من كتاب.. رسم على ورق". أول ما يرى المُشاهد هو أشبه بجدار في سجن يخطّ عليه الفنان خربشاته بأسود الرصاص والفحم ليتوسّع المشهد ويظهر أن المكان المرسوم بجدرانه هو سجن مفتوح السقف.

ربما الحجر الصحي في زمن انتشار الفايروس كثّف من توجه الفنان نحو هذا المضمون من التصوير الفني. ولكنه من دون شك لم يأت منفصلا عن سيرة عبد القادري الفنية. فهو قد اشتغل أعماله السابقة بأسلوب حكائي تتواصل وتتداخل فيه المشاهد ضمن نص سردي واحد يخبر قصة ما من خلال رؤية ذاتية/ فنية يُسهب فيها التأويل.

أحالني هذا الفيديو إلى عمل فني آخر عرضه القادري على صفحته الفيسبوكية منذ أكثر من أسبوعين. عمل تنتفي عنه الألوان هو بالغ في تعبيريته ويجسّد عينا بشرية ترى وتُرى على سطح وجه ليس هو إلاّ جدار السجن إياه، وعليه بضع شحطات تُذكّر بتلك التي يحفرها السجناء على جدران سجنهم، وفي حالة الفنان، على جدار عزلته في وسط انتشار الوباء القاتل.

إن تمعّن الناظر في اللوحة أكثر سيعثر على بعض إشارات صينية محفورة في الجدار الذي في أقل من لحظة تمعن سيتحوّل إلى القناع "الصحي" للبشرية الذي يحمي ويفضح في آن واحد. اللافت جدا في هذه العين التي خط شكلها الفنان أنها لا توحي البتة بأنها لسجين. بل هي عين ذات نظرة نبيلة ومتأملة في عالم عظيم مارس طويلا فن حفر في مسامات الوجه الوحيد الذي تملكه العين، تصنيفات مُخطئة وتسميات نمطية ودونية.

اليوم أسقطت "كمامة الحجر الصحي" القناع عن ديمقراطيات الدول العظمى لتُبقي ملامح النبل الإنساني لعالم ثالث يرزح تحت خط الفقر أو هو عرضة لموجات من الجشع المتواصل ومنها بالتأكيد، لبنان، وطن الفنان.

ومن اللافت أيضا أن العين التي رسمها الفنان لا تتلصّص من الجدار بل هي جزء منه. مُحصّنة بكل ما تراكم عليها من دعابات أرادت التحقير بهذه البلاد وبتخلفها عن أن تكون واحدة من الدول العظمى التي تتغنّى بتطورها.

من النافل قوله، وليس بالتأكيد من باب الشماتة، بأن أكثر الدول المتضرّرة من تفشي الفايروس "المعاصر" الذي لا بد أن يكون مُنتجا مختبريا لإحدى الدول العظيمة والعظمى، هي الدول المتطورة تكنولوجيا واقتصاديا. دول بنت مجد ووفرة صناعاتها الكبرى على حساب اليد العاملة الفقيرة وعلى مردود ثروات تلك البلاد المنهوبة التي لم يحسن أسيادها الدفاع عنها.

اليوم يرفض الأميركيون الساكنون في لبنان، هذا البلد المتعرّج النمو والذي يفتقر للمعدّات الطبية والرازح تحت ديون هائلة، العودة إلى بلادهم لأنهم "في أمان هنا" وفق ما قالوه للصحافة الأجنبية والمحلية.

اليوم تقاوم تلك البلدان "المتأخرّة"، والتي وصفها يوما ما الرئيس بوش بالدول "المارقة" ومنها لبنان، بما ملكت من معدات متواضعة ومعونات وخبرات إنسانية وطبية فذّة، كما تُقاوم بالصلوات وبوجبات الغذاء الصحية والطريفة كوجبة "الشلولو" المصرية الغنية بالثوم والبصل، تُقاوم الوباء.

> عمل تنتفي عنه الألوان، هو بالغ في تعبيريته ويجسّد عينا بشرية ترى وتُرى على سطح وجه ليس هو إلاّ جدار السجن

وتُقاوم بالدعابات وبالخزعبلات وبالخرافات وتقُاوم أيضا بالفن وبالتواصل العاطفي على صفحات التواصل الاجتماعية، وتُقاوم بالتعاضد الاجتماعي المبني على مبادرات شخصية خارج منطق الأحزاب اللبنانية، التي لم تنس أن تطبع شعاراتها على الكمامات وعلى حناجر المعقمات قبل أن تُغدق بها على الشعب المُحتاج الذي أعلن ثورته عليها قبل تفشّي الوباء ومستمرّ فيها إلى ما بعد المرحلة الصعبة التي يمرّ بها.

ماذا تقول عين الفنان في لوحته؟ ماذا تقول المُطلة على ذاتها وعلى العالم والمُحصّنة بـ"خرابها" والتقرّحات التي طاولت مسامات الوجه الخاص بها؟ تقول كما قال محياه عندما التقيته بهدوئه في إحدى المظاهرات، وكما قال يوما ما في الحديث عن أعماله "كل ما يسعني فعله، هو مراقبة هذا العالم بصمت وبأقل ضرر نفسي مُمكن، وإدانة ما يسعني من أفكار وأفعال تدميريّة بكثير من التحفظ. أريد أن أنتج فنا أتعايش من خلاله بسلام مع نفسي".